شخصيات من أدب المقاومة

عبد الله النديم

بقلم سامي خشبة

.. « من أنت يا نديم ؟ ماذا كنت وما الذي تريده ؟ تلميذ فاشل ومعلم صبية ، وكاتب وصحفي ، وخطيب وفلاح ، وتاجر خسر تجارته، ومؤلف روايات وممثل ، مضحك للاغنياء الفقراء ، زجال وداعية ، ومهيج للجماهير ومسكنها ، وحالم بكل ما يورث الجنون وعاشق للناس .. أجل عاشق للناس .. تلك هي المسألة .. عاشق مجنون ، ليس يرضى بأقل من كل الناس في كل الوقت ! » .

***

أجل (١) فان عبدالله النديم، الذي نعرف عنه هذا كله وأكثر منه، الذي نعرف عنه ما يكاد يحيله الى تسجيل حي يحمل آثار كل ما نالته مصر من كدمات ، وهي تصطدم بعالم التوسع الاستعماري وتقع فريسة لبراثنه القاسية في القرن التاسع عشر ، ويحمل كل ما كان يمكن لمصر أن تفعله وهي توشك على الصدام ، ثم وهي تخرج بعده مثقلة بالقيود والجراح تتحسس روحها المتعبة التي لم تخمد ، ولم تمت ، ان عبد الله النديم ، هذا الشخص الواسع الشهرة ، الكثير الكلام ، لم يكن معروفا قط بدرجة كافية !. ذلك لان النديم ، الذي وصف نفسه بكل هذه الصفات في رواية أبو المعاطي أبو النجا ، وهو جالس في حجرته المظلمة وحيدا في قرية من قرى الوجه البحري ، كان يحاول أن يعرف نفسه في أثناء محاولته لمعرفة وطنه مصر ، الا أن وطنه كان موضوعا معقدا وشائكا ومظلم الاعماق . وعلى الرغم من انه لم يضل في سراديبه ، فانه ـ وبالتدريج ـ لم يعد يعنيه أن يعرف نفسه أو أن يهتم بها . وحتى حينما وجد نفسه وحيدا في النهاية ، مجبرا على أن يظل حبيس الحجرات المظلمة مع خادم أمي ، وفكرني الاهتمام بنفسه ، اختار طريقا عجيبا لتحقيق هذا الاهتمام ، اختار أن يعلم خادمه القراءة والكتابة والفقه ، حتى يتمكن من مناقشته واشباع رغبته في الحديث معه . وكانت النتيجة ان نسي الاهتمام بنفسه مرة ثانية ، وخرج من دوقته الخاصة ليغرق في العالم المحيط به يحاول أن يكتشفه من زوايا جديدة ، الدين والفلسفة ، واللغة والاليات .. والتقدم والتاريخ .. ليكمل دورته ويعود من حيث كان، سياسيا غارقا في مشاكل الاخرين .

ولكن الفن على عكس التاريخ ، لا يحب امثال هذه الشخصيات الغامضة ، أو تلك التي تتخفى وراء وضوحها الخارجي في كل ما يتعلق بنشاطاتها في عالم الناس ، فيختفي جوهرها الداخلي الحقيقي، وتختفي فرديتها ومعالم تمييزها وراء نشاطها الخارجي الواضح نفسه. وفي الوقت ذاته ، فانها شخصيات يصعب فهم التاريخ الحقيقي المتحرك الى الامام دون فهمها ، بقدر ما يصعب فهمها دون فهم حركة التاريخ التي تصبح هذه الشخصيا دافعا من دوافعها ، بقدر ما يصبحون كملامات الطريق يرسمها التاريخ ليتحدد بهم مسار تقدمه . لكل ذلك كان على ابو المعاطي أبو النجا ان يحيل هذا الشخص المشهور والغامض الى « شخصية » انسانية متكاملة . ولكل ذلك ، كان لا بد لنا ـ وللمؤلف ـ أن يكتشف ملامحه هو الحقيقية . كان علينا أن نراه وهو يكتشف معاني الفنى والفقر ، وهو يحلم بالحياة الرخية ويسافر ويتأمل ويثرثر ، وهو يمارس الصداقة والابوة والبنوة والحب ، وهو يغرق في الصعلكة والتشرد والجوع ، وينفر من التعليم ويتعشق الحرية ، ثم يتساءل عن معنى العلم والحرية كليهما ، وهو يصبو الى المعرفة ويذهب الى منابعها ، وهو يقارن بين المعرفة والخبرة .. ويكتشف أن للناس تاريخا ، وأن جوهر التاريخ هو التقدم وأن الحرية والعلم يصنعان التقدم .. فيعثر بهذا على قضية حياته ومعناها : .. للناس جميعا حق في الحرية والعلم ، فلا تنفصل حياته الشخصية بعد هذا عن تلك القضية مثلما أن حياته قبل ذلك العثور لا تنفصل عن عملية البحث عنها .

لم يحفظ لنا التاريخ الحقيقي الكثير عن عبد الله النديم الانسان ، أو الشخصية الانسانية المتفردة والمتميزة التي تمارس هذا كله وتخوضه وتكتشفه ، على الرغم من كثرة ما حفظه لنا هذا التاريخ من أفعال النديم وأقواله . وربما كان الغالب الروائي ، المتراوح بين منهج الواقعية التصويرية ، والاسلوب الموضوعي الملحمي ، وبين التسجيل المباشر ، هو ما ساعد أبو المعاطى على اكتشاف نوع من التماثل « الختمي » بين عالمي النديم الخارجي والداخلي ، رغم اهتمامه ـ كفنان وليس كمؤرخ ـ بالنظر الى النديم أحيانا من زاوية عالمه الداخلي ، هذا العالم الذي كانت أكثر موضوعاته هي موضوعات حياته العامة كنتيجة بديهية لتلك القامة الملحمية المديدة التي يكتسبها النديم حتى في التاريخ الحقيقي والتي لا تسمح له بأن يكون له عالم داخلي خاص شديد البعد عن اهتماماته الخارجية . ولكننا نعتقد أن ذلك التماثل ـ الذي قد نراه في التاريخ بعد جهد شديد ـ انما كان جزءا من عملية الخلق الفني لشخصية النديم التي حققها أبو المعاطي . فحينما وقف المؤلف الفنان بين التاريخ الحقيقي وبين تصوره الخاص ببنائه الفني أو ضروراته الفنية ، استطاع أن يمنح نفسه الحق في أن يملأ فجوات التاريخ بمادة من عنده ، لانه ليس من حق التاريخ أمام الفنان أن يظل ناقصا ، وان كنا لا نطلب من الفنان أن يقوم بدور المؤرخ المنقب ليستكمل التاريخ أو يسد نقصه . ان الفنان ، اذ يكمل نقص التاريخ ، فانما هو يعيد خلقه ويستحضره كاملا من جديد من خلال رؤيته وتفسيره لهذا التاريخ . انه يرمم الجسد المكسور بمادة تصوراته ورؤيته التي يضعها في مكان النقص لكي يعود الجسد حيا وكاملا وجديدا . كانت انسانية النديم هي ما اهمله التاريخ الحقيقي ، وهي ما استكملها أبو المعاطي بخلقه الجديد الذي استعان فيه بكل ما خلفه لنا التاريخ من حقيقة ، ففدا التاريخ اكثر حقيقية لانه اصبح اكثر اكتمالا . لقد استطاع ابو المعاطي ان يمنح التاريخ المعروف الحقيقي والناقص القدرة على الحضور المتجسد حينما أعاد صياغته بأداته الفنية ، أولا ، ثم حينما منح بطله هذه الشخصية الانسانية المتكاملة ، التي جعلته « رجلا » حقيقيا ، بدلا من أن يظل مجرد مجموعات من الازجال والخطب والمقالات التي تحفظها كتب التاريخ . وبذلك ضمن أبو المعاطي لعمله أن يحمل جوهر عصره التاريخي وحقيقة حركته ومساره من ناحية ، وضمن له ـ من ناحية أخرى ـ ذلك الوهج الحار للعمل الفني حين يضم بين طياته انسانا حيا دائب الحركة والنمو !

---

* ـ فصل من كتاب « شخصيات من أدب المقاومة » يصدر قريبا.

١ ـ هذا الفصل يتناول شخصية النديم من خلال رواية أبو المعاطي ابو النجا « العودة الى المنفى » وتصدر قريبا .

ولكن هذا الانسان الدائب الحركة ، والذي اسمه عبد الله النديم، كان دافعا من دوافع حركة التاريخ في بلاده ، بوعيه ونوعيته ونشاطه الهائل وتعاليمه ، كما كان جزءا منها لا يمكن فصمه . وحياة الانسان القصيرة لا تسمح له بأن يغرق في اكثر من بحر واحد . يمكنه ان يسبح في بحر او ان يطفو في آخر ، ولكنه لن يغرق الا في البحر الذي تجذبه دوامته وتشغله تياراته ورياحه ... ولذلك فان النديم الذي جذبته دوامات بحر مصر كلها وشغلته تياراتها ورياحها ... « نديم الذي كانت مصر كلها بيته ، وشعبها اصدقاءه ومستقبلها مهنته ، ونواديها سمره وقضيتها مشكلته الشخصية » ، نديم هذا لا يمكن ان يكتب عنه الانسان دون ان يكتب عن «مصره» نفسها . واذا بمصر هي التي تشغل الكاتب وليس نديم ، او ان مصر تصبح هي محور اهتمام الكاتب في الوقت الذي يكون فيه نديم هو نقطة الارتكاز في هذا المحور . ذلك ان نديم كان اقرب المصريين الى معرفة كنه مصر نفسها ، لانه كان اكثرهم انشغالا بها منذ اكتشف كم يمتزج وضعه ومستقبله بوضعها ومستقبلها ، ولانه كان اكثر المصريين تجوالا بين ربوعها ، يكتشفها بعينيه ويتحسسها باصابعه .. كان يراها كل يوم في بيوتهاوشوارعها ومقاهيها وقراها ومدنها ومنتدياتها وحواريها وسككها ، ولم يكن مجرد خطيب او صحفي يتحدث من فوق منبر او من فوق صفحة الورق ، وانما كان ينافس كل شيء مع أي انسان.. في القطار والمولد والجامع والمقهى والبيت والمعسكر وعلى قارعة الطريق أو في قصر الخديو او في اجتماعات الضباط او مجالس الاعيان أو في الحقل مع الفلاحين .. كان يرتجل الزجل ويكتب الخطابات والبحوث الفلسفية ويفاجأ بخطبته منشورة في اليوم التالي فلا يذكر كيف ارتجلها .. ويؤلف التمثيلية ويدرب الممثلين ويملي مقالا ويسهر ليمثل على خشبة المسرح ويفتتح التمثيل بخطبة وينهيه بخطبة اخرى ويجمع التبرعات ويعقد الصفقات ويستشهد بالامثال الشعبية ويناقش الخواجات المثقفين في مشكلة التقدم وفي معنى الاستثمار وكيفية تكوين شركة صناعية ودور البنوك في الاقتصاد وما هية الاديان ودور الالوهية في الفلسفة ، ويناقش جمال الدين الافغاني في اهمية العمل المستضيء بنور الفكر ، ثم يتركه ليفكر في اهمية العمل حينما يتطابق مع المبدأ !

لماذا انجبت مصر مثل هذا الانسان الذي شغل نفسه بهذه الامور الكثيرة كلها ، الجديدة في معظمها على عقول المصريين ؟ ولماذا انشغل هذا الانسان بهذه الامور الجديدة التي كان اكبر العقلاء في وطنه يرونها من سفاسف الامور في عصرهم ، لماذا انشغل هو بكل هذه الجدية المحمومة التي لا تعرف الكلل ؟ . فاذا كان نديم تساءل : « من انت يا نديم ؟ ماذا كنت وما الذي تريده ؟ » فان من حقنا ان نتساءل اولا : من اين جاء هذا الانسان ، واي قوى تلك التي انجبته وحافظت عليه واصغت الى اقواله ووعتها ؟ ان فهم نديم يتطلب فهم مصر التي عاشها ! .

***

شهد مطلع القرن التاسع عشر في مصر وهي تتخلص من السيطرة التركية العثمانية المباشرة ، التي كانت آخر حلقات السلسلة التي شدت مصر الى العالم الاسيوي الوسطي المتبربر منذ القرن العاشر ، وشهد مطلع هذا القرن مصرا وهي تتخلص من احتلال الحملة الفرنسية التي جاءت بالمطبعة ومظاهر الحكم الديموقراطي وادوات الدولة والحضارة الحديثة ، ثم من احتلال حملة انجليزية استولت على بعض ثغورها ، ثم وهي تتخلص من بكوات المماليك الاقطاعيين القدامى ، ثم وهي تلقى تدريبها السياسي والفكري الشعبي في مواجهة الحملتين الاوروبيتين وفي غمرة الانهيار الذي اصاب سلطة المماليك منذ فروا امام نابوليون في امبابة حتى ذبح آخرهم في دهاليز القلعة وخلف ابوابها . وكان هذا التدريب يتم في عصر الثورة الفرنسية نفسها ، عصر الجماهير المسلحة والمتاريس في الشوارع ، بينما المشايخ منقسمون بين قيادة الثورة وبين خدمة السلطات القديمة او الناشئة او الغازية ، وبينما القيادات العسكرية والسياسية يفرزها الشعب من قلب المعارك بعيدة عن الازهر — او بعيدة عن عقليته التقليدية — رغم انها قيادات عاجزة عن الوصول الى اي مصدر من مصادر الثقافة الحديثة . كما شهد مطلع القرن مصر نفسها وهي تتأمل فما انساها كيف يصنع الغزاة الاوروبيون ارقاما على البيوت ، وكيف تخالط نساؤهن حرافيش العامة وكيف يجتمعون في صخب في بيوت يسمونها تياترات ، وكيف يصدرون في كل صباح مناشير مطبوعة يقرأونها ويفهمون منها ما يريد كبراؤهم، وكيف يحفرون الارض بحثا عن كنوز القدماء وكيف يحققون بروية في قضية مقتل سارى عسكرهم دون آن يتعجلوا بالقتل او النهب بعد أن يثبتوا كل مايعرفونه من دقائق الحادثة في اوراق عندهم .. ثم لا تمنعهم الرويه والتدقيق من خوزقة القاتل وشركائه في النهاية (على طريقه أهل البلد !) ولا تمنعهم الاوراق من تحرير المدافع عن المدينة ودوس المساجد بسنابك الخيول ! ثم شهد مطلع القرن مصر نفسها وهي تقع فريسة لسلطة قاهرة جديدة ، تبني جهازا جديدا لدولة مركزية قوية وجيشا من الاهالي ونظاما حديثا للتعليم يقوم على البعثات الازهرية الى الغرب الصناعي المتقدم ، وتشرع في بناء صناعة واسعة وتستقدم الخبراء في الزراعه والتجارة والصناعة من الغرب الذي كان قد دخل عصر الانقلاب الصناعي الاول والتوسع الاستعماري وحول بيوت رهوناته الصغيرة الى بنوك ثم استبدل الاشرعة المنتفخة بالهواء بغزانات ضخمة تدير دواليب السفن والمصانع ببخارها المضغوط !

حدث كل هذا في اقل من عشرين عاما ، فكان على مصر — في غضون الاعوام العشرين التالية — أن تنفض عن نفسها أشكال السلطة السياسية والنظم الاجتماعية التي دامت عشرة قرون كاملة ، لكي تلج في حرص هذا العالم المختلف كل الاختلاف عن ذلك الذي تركته حينما بدأت سباتها الوسطي الطويل منذ ثمانية قرون . كان عليها أن تكتشف ان العلم لم يعد هو مجرد الفقه والشريعة والتوحيد والمنطق وعلوم اللغة وسرد حكايا التاريخ والسيمياء واليازرجة ، وان السياسة لم تعد مجرد شهوات الحاكمين ، وان الحرب لم تعد نزالا بين صفين بالسيوف ، وان التجارة لم تعد قوافل من الجمال تحمل الحرير والبهارات والرقيق ، وان الصناعة لم تعد هي الحرير الدمشقي ولا الكتان المصري ولا السيوف اليمنية ولا المشغفات الفارسية ، أن النقود لم تعد مجرد صرة من الحرير معقودة على حفنة من الدنانير . كان على مصر ان تعرف كل هذا وان تستسلم لعملية تغيير شاملة — على ضوء تلك المعرفة — تبدأ من القاع .

ولكن ما حدث هو أن مصر قد اندفعت بقيادة سلطاتها الجديدةالتي لا تنتمي الى العالم الجديد رغم مظهرها قدر انتمائها الى العالم القديم وحلم الامبراطورية الدينية وسلطة الخلافة — اندفعت مصر دون تبصر او حذر خلال العشرين عاما التالية نفسها لتقع في منطقة المركز من اعصار العالم الجديد الهائج المسلح بالمصانع والمدرعات البحرية والمدافع والبنوك ، لكي ينهار كل ما شيدته — جديدا في مظهره — سلوكه قديما في جوهره المتحكم — سريعا وفي خلال ثلاث سنوات فحسب — فتغلق المصانع والمدارس وتسرح الجيش وتبيع السفن والترسانات أو تتركها للاهمال والخراب والصدأ . . صفي دواوين جهاز الدولة الجديد وتتخلى عن أحلام الامبراطورية ، ولكي تقنع سلطتها الجديدة بوراثة هذه الولاية — مصر نفسها ! — على أن تدفع الجزية .. وتعمل بفرمانات السلطان ، الخليفة العتيق القابع في الاستانة !

ولكن التاريخ لا يعمل وفق فرمانات السلطان ، حتى ولو كان هذا السلطان خليفة وعتيقا وقابعا في الاستانة . فاذا كانت الهزيمة العسكرية والارهاب الاستعماري قد أجبرا محمد علي — صاحب السلطة

الجديدة ـ على التقوقع داخل مصر وعلى محو كل ما كان شيده لتحقيق أحلامه ، فان هذه الهزيمة ما كانت تستطيع أن تمحو من أذهان الشعب ولا من على ألسنة كل ما تعلمه وخاض فيه طوال نصف قرن كامل : المطبعة والتعليم وخريجو البعثات والمشاركة المباشرة في الحكم والادارة، بكل ما حملته هذه التجديدات ـ التي لم تلغ كلها لحسن الحظ ـ من تغيرات جوهرية الى العقلية المصرية . كذلك لم تستطع فرمانات السلطان أن تمنع ظهور طبقة مصرية جديدة من العمد والمشايخ والاعيان، ومن الموظفين ورجال الادارة وضباط الجيش والبحرية والمهندسين والمدرسين والاطباء . وعلى الرغم من سنوات التجمد الست في حكم عباس حلمي الاول ، فان اللائحة السعيدية الصادرة سنة ١٩٥٨ باباحة ملكية الارض ثم الغاء ضريبة الدخولية (١) ، التي حولت السوق المصرية الى سوق رأسمالية واحدة بعد منح الملاك حق التصرف في الارض وفي محصولاتها ، ثم اعادة فتح المدارس العليا ، التي أغلقت في اخر ايام محمد علي وظلت مغلقة في عهود ابراهيم وعباس وسعيد ، واستمرار سياسة البعثات على قلتها في عهود خلفاء محمد علي الثلاثة ، ثم اتساع التعليم النظامي الحديث ، بمراحله المختلفة ، الحكومي والاجنبي في عهد اسماعيل الذي تضاعفت البعثات في عهده ايضا تضاعفا هائلا مع زيادة الاحتكاك الاقتصادي والسياسي والفكري بالغرب البورجوازي زيادة هائلة ، كل هذه العوامل ساعدت على خلق طبقة بورجوازية مصرية وانضاجها ، تسعى الى تأكيد أهميتها وحقوقها السياسية بأساليب مختلفة عن اساليب اسلافها التجار والمشايخ ونظار الاوقاف في اواخر القرن الثامن عشر ، وهي طبقة تؤمن بحقوقها السياسية والاقتصادية ، ولكنها ليست على استعداد لحمل السلاح أو لتعبئة الجماهير وراءها لانتزاع تلك الحقوق ، وهي أيضا طبقة نمت في عزلة شبه كاملة عن المؤثرات المباشرة للعقلية الازهرية القديمة بعدما أصاب مشايخ الازهر من ضعف اجتماعي وسياسي على أيدي محمد علي وابراهيم بابعادهم عن الحياة السياسية بعد نفي عمر مكرم وانتزاع الاوقاف من أيديهم ، وبزيادة اعتماد الدولة على خريجي البعثات والمدارس والنظامية الجديدة هؤلاء الخريجين المحملين بثمرات الاحتكاك الحضاري والعقلي بالغرب ، المفتونين بالنظم النيابية والصحافة والجمعيات السياسية (الاحزاب) والشركات الاقتصادية والتنظيم الاجتماعي الدقيق ، وهم انفسهم الذين شكلوا الجانب المتحرك والفعال على مسرح السياسة المصرية طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

هكذا تحركت مصر في عهد محمد علي وولده ابراهيم وحفيده عباس ـ تبني نظاما اقطاعيا مركزا ، ينتمي في جوهره وفي علاقته الاجتماعية الى النظام السياسي والفكري القديم ، ولكنه يحاول ان يستعير وسائل النمو البورجوازية ـ أو التي استحدثتها البورجوازية في الغرب ـ في الادارة والتعليم والصناعة والتنظيم . ولكن هذه الاستعارة التي بلغت أوجها في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر ، وما تلاها من هزيمة وتقوقع في فترة منتصف القرن ، فجرت تناقضات النظام مما أدى الى التحول الرأسمالي الذي بدأ بتوحيد السوق المصرية وبتحويل الارض ومحصولاتها والعمل الزراعي وتوابعه ، الى سلع رأسمالية في تلك السوق الواسعة الموحدة التي شرعت تخضع لعلاقات الانتاج الرأسمالية ولقوى الانتاج الرأسمالية الضخمة في الغرب . ولم يكن باستطاعة ملاك الارض المصريين الجدد ، ولا التجار المصريين الناشئين أن ينافسوا تلك القوى الانتاجية والتجارية الاستغلالية الهائلة التي تسللت أولا في صورة مستشارين وخبراء وموظفين لدى الادارة المصرية وحكومتها المهزومة المتطلعة عبر البحر الى اوروبا ، ثم تسللت بعد ذلك على جسور القروض والديون والفوائد ، والشركات العقارية وبنوك الرهونات ... واحتياطيها الكبير من الخمارات والارساليات والسماسرة والمرابين ، لكي تستولي استيلاء كاملا على المراكز الحيوية للاقتصاد والادارة والسلطة والتعليم والقضاء في مصر . وظل ملاك الارض والاعيان ـ تلك الارستقراطية المصرية الجديدة ـ يتراوحون بين المقاومة الواهنة لهذا التسلل وبين الاستسلام له ومحاولة الاستفادة من النشاط الاقتصادي الذي أحدثه قدر امكانهم . اما صغار الملاك والنجار والموظفين والمهنيين والحرفيين فكانوا الضحايا الحقيقيين لتلك المنافسة غير المتكافئة . كانوا يفلسون بالجملة وتنتزع منهم الارض لصالح الاعيان ، وتغلق متاجرهم ويوفرون من وظائف الدولة ، وتجبرهم البضائع الاجنبية الرخيصة على التحول الى جيوش من العاطلين والمتسولين او الى أعباء مضافة على اقربائهم في الريف . ومن قلب هؤلاء ، جاء عبدالله النديم !.

***

وفي هذا المجتمع المنقسم الى أعيان دب الوهن في قلوبهم وترهلت أرواحهم المثقلةبعبء ميراث من التجهيل والعزلة الحضارية والسياسية يمتد وراءهم ألف عام كاملة ، ثم الى طبقة تخشى أن تتحول الى الفاقة والتسول تحت وطأة عوامل الطرد السياسي والاقتصادي الفازية ، في مثل هذا المجتمع قد تحب طبقة الاعيان دائما أن تسلي نفسها عن حيائها الفارغة ، وتتكفل الطبقة الثانية دائما بمدها بالمهرجين الذين يسلونها . وكان من المقدر لنديم أن يظل طيلة حياته مهرجا متخصصا في تسلية الاعيان ومنادمتهم في لياليهم الطويلة . لم يدر أحد ولا أبو المعاطي أبو النجا نفسه ـ كيف امتلك عبدالله الصبي هذه الحصيلة الهائلة من المحفوظات في الشعر والحكايات والنوادر والطرائف والملح ، ولا من اين حصل عليها . كل ما نعرفه هو ان هذا الصبي ابن الخباز الفقير ظهر فجأة مع أحد المشايخ المدرسين في الجامع الابراهيمي بالاسكندرية وكان شيخا مولعا بالشعر والادب ، ظهر معه عبدالله الصبي في بيوت الاعيان وفي مجالس سمرهم الليلية التي لا تنتهي . وحينما افتتن الاعيان بمهرجهم الجديد ، لم يعرفوا ان الصبي هرب من الدراسة الازهرية في الجامع ، حيث لا يدرسون الا الفقه والمنطق والنحو ، ولم يعرفوا ان النديم كان يتعلم في مجالسهم كيف يسيطر على الناس بالكلام ، وكان يتلقى أثناء ضحكاتهم اول ادراك واضح له عن الفرق بين الغنى والتخمة واللامبالاة ، وبين الفقر والجوع وحمل الهموم ! ـ «كيف يحس حين ينتزع من قصر الشواربي بك الفاخر ليتحسس طريقه بعد قليل في حارات المنشية الرطبة المظلمة ، وحين يسلم جسده لفراش ما كان يحس مدى حقارته قبل ان يدخل هذا القصر ويرى الى ما فيه من حشايا وارائك ومناضد ، وحين تمتد يده مع ايدي اسرة كاملة الى طبق واحد وقد كانت منذ قليل ترتعش بقدح الخشاف الرائع المذاق خشية أن تسقط منه قطرة واحدة على المفرش الحريري المطرز .. ماذا يحس حين يتكرر ذلك ويتكرر ؟!» .

في تلك الاونة ، لم يحس النديم باكثر من الرغبة في أن يكفل لنفسه الاستمتاع بمثل هذه الحياة الرخية ، على حساب مالكيها ، اذ لم يكن باستطاعته ان يمتلك اسبابها لنفسه . وهؤلاء الاعيان قد ينظرون اليه كمهرج طفل ، مجرد « نديم » يسامرهم ويذهب عنهم وحشة الليل والحياة المضطربة المهددة ، اما هو فيكتشف انهم لا يملكون عقولا كعقله ، ثم المال الكثير الذي يملكونه .. فاذا نسوه في مجرى الكلام أو تجاهلوه ... عاد يذكرهم بنفسه بنكتة يلتقطها من كلامهم « وهي طائرة » .. ليحذرهم من تجاهله مرة ثانية . انه يبحث عن شيء اكبر من ان يظل مهرجا نديما ، ويبحث عن مستقبل اكبر حتى من تدريس النحو أو الفقه او المنطق في الجامع الابراهيمي .. او حتى في الازهر نفسه .. وهو يبحث عن معرفة اوسع واجمل مما تحتويه هذه العلوم التي ما كان لها ـ اذا ظلت بمفردها تستأثر بعقله ـ الا ان

١ ـ ضريبة الدخولية ضريبة اقطاعية قديمة جددها محمد علي سنة ١٨٢٨ ، كانت تفرض على السلع التجارية مقابل السماح بدخولها الى اية مدينة او قرية او مديرية . وكانت هذه الضريبة تعني تقسيم السوق المصرية ومنع قيام سوق رأسمالية قومية بالمعنى الحديث .

صوت الشيخ

نسافيتك يا ألق السنين الرحبة الاضواء . ذبنا فيك..
لم نندم
لانا نحن من أكلت غيوم الهمس من أقدام رفقتنا ،
وما قدحت
لانا حين نناى عنك يا جبل السكوت نعانق الرفضا
وسنرصيك لا ترضى ..
فلم افصحت حين أتاك صبيتنا الذين لووا على شفة المدى
في الصبح عنق الريح ،
ومدوا الكف للغرباء في الظهر ،
وفي العصر اكتووا بصياحك الساكت ؟!
وفي المغرب
توضا شيخهم ليؤمهم . فارتاع . مات الضوء فيه ، فمات
ولكن ، كان في محرابنا آهات
ضحكنا .. واستعرناها تزين في أزقة بيتنا مأساة
تبارى الصبية الجاءوك بالعدو
وقال الناديون جميع ما حفظوه في الميتم
وغنى البحتري ملكه :
« هوى.. أقعي هنا من قبل أن يعوي
ومثل الرعد أقبل دون برق ذلك الاطس
وحين تدرّع الفرسان نحو نزاله .. خافا ! »
فقالت آهة زرقاء :
ـ من الشيخ الجديد يؤمكم .
يا ويلكم ، يا ويل ...
ـ بلى من شيخنا يا ناس .. هذا الليل ؟
وغبنا في السؤال . توالت الصلوات لا شيخ ولا جامع
تآكلنا الجذام العام تلو العام
صدى صرنا
تحدى ذلنا الارباب . ماتت مريم فينا . وشل الطفل
من اعياء ..
صعدنا القمة الفرعاء
ذبحنا فوق رهبتها صبايانا ، فما انذبحت خطايانا ..
جدلنا من شعور نسائنا زنبق
وسيجنا أسرّتنا لعل ينام فيها صوتك الممنوع
يا جبل السكوت
وعل نكتشف الصياح مجنح الاطراف والذيل .
ولم ندر ،
بأن حناجر الآتين غبّ الموت والشكوى ، نحاسيه
تعانق في مفارزها الدخانيه
صديد الراحلين وكذبة الميعاد !
ولم ندر ،
بأن ضروعهم جفت ووراها جياع الفاتحين الصيد
في البحر
وأين البحر ـ يا صخب الزحام الحالك الاصوات
أجاب الكل :
مات الشيخ ، ما قالا ...!
وقالت آهة زرقاء :
من الشيخ الجديد يؤمكم هذا العشاء ،
فويلكم يا ويل ...
ـ بلى ... من شيخنا يا ناس ، هذا الليل ؟؟

حلب

نبيه شعار

تحول عقله الى حفرية متحجرة لكائن منقرض قديم !.

ولكنه ان كان مجرد رجل باحث عن الرزق الذي يضمن له حياة ناعمة ، فهو ليس على استعداد لان يتحول الى مسخ هزأة يسخرون منه ، وليس على استعداد لان يتنازل عن اعتزازه بنفسه او احساسه بكرامته حتى لقاء هذا الرزق . ولذلك فما يكاد شاهين باشا كنج ـ مفتش الوجه البحري والقابع على قمة الهرم الطبقي في دلتا النيل كلها ـ ما يكاد هذا الباشا يقول له في لقائهما الاول : « ولكنك ظريف يا ملعون .. ظريف » ، حتى اجابه النديم في تبسط « نعم .. ظريف جدا » حتى لا يكون من حق الباشا وحده ان يرفع الكلفة بينه وبين نديم ، دون ان يكون من حق نديم ان يرفع الكلفة من جانبه . وليس لهذه الاجابة سوى معنى واحد : ان نديم ـ الذي يريد الناس ويريد الباشا ان يروه مسليا للباشا ومجرد مهرج يضحكه ـ لا يرى نفسه الا ندا لهذا الباشا كانسان ، ويملك عقلا لا يملكه الباشا وان كان الباشا يملك المال والمكانة الاجتماعية وأسباب الحياة المريحة التي يريدها النديم ويتشهاها لنفسه .

وفي قرية بدواي ، من قرى الوجه البحري ، يتعلم النديم شيئا اخر . يتعلم أن لطبقته المهددة بالتسول في الاسكندرية ، أشقاء لا حصر لهم في الريف ـ يتسولون فعلا . ولكن هؤلاء الاشقاء من الفلاحين الفقراء لا يفهمون عنه وان فهم هو عنهم .. انه يتحدث لغة لا يفهمونها .. ويعجز هو عن اكتشاف سر عدم فهمهم له ، رغم انه يفهمهم في اعماقه ويسعى الى ان يقيم نوعا من الحوار المتبادل بينهم وبينه منذ اكتشف كيف تتشابه معاناتهم مع معاناته هو في الاسكندرية ومعاناة طبقته هناك. كانت اللغة هناك هي حريته المطلقة السراح ، فما بالها الان تصبح سجنه ، وابوابه المغلقة هي شفاء هؤلاء الفلاحين المطبقة ؟!

ولكن النديم ، لم يكن على استعداد ـ في هذه الفترة التي تحول فيها الى معلم لاولاد الاعيان بعد ان كان نديما للاعيان انفسهم ـ لم يكن على استعداد لان يفعل شيئا اكثر من ان يتعلم . انه مجرد رجل باحث عن الرزق والمعرفة ، فليختزن اذن معرفته حتى تحين ساعة استخدامها ، وليطالب باجره ، فهذا هو الرزق الذي يريده الان .. وليكتشف عند مطالبته بهذا الاجر السر في ذلك الجدار الذي قام بينه وبين الفلاحين وعجزه عن اختراقه انه لم يكن في نظرهم سوى رجل من رجال العمدة واحد افراد حاشيته ، وليواجه الموت ـ موته هو ـ حين يفرر العمدة أن يحرقه حيا لتطاوله عليه .. وليهرب الى حيث يلتقي

ـ التتمة على الصفحة ٦٠ ـ

شخصيات من أدب المقاومة

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٤١ ـ

بشاهين باشا كنج ليتحول الى مهرج من جديد .. ليتعلم أشياء جديدة ؟.

وفي طنطا يتعلم بالفعل شيئا جديدا . يتعلم قيمة الكلام وقيمة معناه ، لا كوسيلة يكسب بها رزقه ويصل الى الحياة الرخيصة ويسلي بها الاعيان ، وانما كوسيلة للاستيلاء على عقول اخوته المهددين بالتسول في الاسكندرية وامثالها من المدن ، وعلى عقول اشقائهم المتسولين فعلا في الريف كله .

ها هو يقف في مواجهة الشيخ داود ، شيخ الادباتية المهرجين في مباراة اقامها الباشا ليسلي نفسه وحاشيته ، يتنافس فيها النديم ضد شيخ الادباتية ومن معه من الادباتية جميعا .. وتبدأ المباراة امام كل من وصله الخبر من ابناء طنطا والقرى المحيطة بها . وقبل ان تبدأ المباراة لم يكن يهم نديما الا ان ينتصر على الادباتية ليثبت جدارته وليفوز بجائزة الباشا ، ولم يفكر لحظة واحدة في هذه الالاف من البشر المتجمعين ليحصلوا لانفسهم على هذه المتعة المجانية التي سيدفع الباشا ثمنها .. « بالنسبة لنديم ، كان الحشد كله قد بدأ يختفي .. لم يكن يحس به الا حين ينتهي من الانشاد فيهدر التصفيق .. كان ثمة رجل عجوز يناظره ويساعده آخرون ، وكانوا جميعا يلعبون بالكلمات ويحولونها الى نغم ، مجرد نغم ، ولم يفكروا هم أنفسهم طويلا فيما يمكن أن يكون للكلمات من معنى ، ولم يكن ذلك الحشد الجاهل معظمه يهمه سوى أن يطرد النغم فيصفعه .. كانت تلك اللعبة هي لعبة نديم المفضلة ، التي طالما بهر بها معظم من عرفهم .. » . ثم ينسحب الشيخ داود ، اكبر خصومه ، ويتصدى غيره لنديم المنتصر ، حينئذ اكتشف نديم سر انتصاره الذي أصبح مؤكدا .. ليس مجرد الكلمات .. وانما من أين تأتي الكلمات وما معانيها ؟ هذان السؤالان يجيبان على التساؤل عن السر في تصفيق الجماهير الذي أصبح له وحده القسم الاكبر منه .. « وبدأ يبصر الحشد الذي اختفى من عينيه ، لم يعد يخافه . كانت تلك أول مرة يلعب فيها لعبته أمام مثل هذا العدد ، ويكتشف فيها أن هذا الحشد يمكن ترويضه مثل غيره من الاشياء ، وانه حين يروضه يصبح أسلس قيادا وتصبح اللعبة أمامه أكثر روعة » . مجرد لعبة ما تزال .. ولكنها سرعان ما تصبح مهنة تحمل اعباء الرسالة ، وسرعان ما تصبح معاني الكلمات ، لا جرسها ولا نغمتها ـ هي ما تضمن لنديم أن يكون على رأس هذه الحشود وفي قلبها وملء أسماعها وأبصارها .

هذه هي ولادة النديم ، القائد الشعبي والفكري والدعائي للثورة القادمة ، الذي كانت وظيفته هي تعبئة الجماهير وراء الثورة وتوعيتها بروح الثورة منذ اللحظة التي قابل فيها عرابي حتى خرج نديم نفسه من مصر كلها للمرة الثانية والاخيرة . لقد اكتشف نديم في تلك اللحظة انه يمكن أن يضمن الانتصار لقضيته اذا هو أثر على الجماهير واذا هو غير مفهومها ، وأنه ليس ثمة وسيلة للتأثير ولا للتغيير سوى وسيلة الكلام نفسه . الكلام بالنسبة للادباتي المهرج كان يعني مجرد تنغيم لا معنى له ، وكذلك كان الكلام بالنسبة للحشد الجاهل أو الذي تم تجهيله عبر قرون من التخلف والقهر . أما النديم فقد اكتشف أن للكلام معنى ، وأن هذا المعنى هو الذي يجعل للكلام وظيفة وقيمة ـ هذا الاكتشاف العادي والبسيط المدهش ـ واكتشف أن الناس رغم جهلهم وميراث تخلفهم قادرون على فهم معنى الكلام ، وعلى التعلق بهذا المعنى والاستمتاع به الى جانب استمتاعهم بالتنغيم . الان يفهم السر في عجز الفلاحين عن فهمه في بدواي وكان ساعتها رجلا من رجال العمدة حتى وان حاول أن يحدثهم عن بلواهم . أما الان فانه عبد الله النديم فقط ، لا تربطه صلة بالباشا رغم انه يقي الشعر في مجلسه . انه لا يسعى الان الا الى أن يؤكد ذاته من خلال كلماته المحملة بمعانانه وقهره .. القهر الذي يقاسمه فيه هؤلاء الذين جاءوا من كل القرى التي تشبه بدواي والذين يصفقون له وينصرونه على شيخ الادباتية وعلى وعلى الباشا وعلى امتحانه الصعب من أجل أن يستخلص ذاته من براثن كل من يصرون على الاحتفاظ به مهرجا يسليهم في لياليهم السقيمة . انه الان لا يسلي أحدا ، وانما هو يعبر عن ذاته الحقيقية فقط ، والفلاحون يكتشفون حين يرون هذا الانسان على حقيقته ، أنه مجرد واحد منهم ، رجل يشبههم ويتكلم بلسانهم ويجيد الكلام !.

لقد اكتشف النديم في هذه اللحظة مقدار سحر الكلمة وقوتها وقدرتها الغلابة على تغيير عقلية الجماهير وتغيير عاداتها . كان الشيخ داود هو المشهور بين هؤلاء الفلاحين وليس النديم . فلماذا نصروا النديم وتخلوا عن شيخ الادباتية ؟ لقد تكفلت كلماته بتغيير عادة هذه الجماهير وعقليتها ـ ليس من خلال ما يظن أن كلماته قد حملته من مفاهيم جديدة عن الحياة والواقع ، فالنديم نفسه لم يكن يمتلك حتى هذه اللحظة مثل هذه المفاهيم المحددة وان كان يحمل احساسه ببذورها الشعورية الاولى تتخلق داخل عقله ومن خلال تجربة قهره ومعرفته لقهر الاخرين وتفكيره في تجربته ومعرفته . اكتشف النديم أن الكلمات التي تحمل اثرا من هذه المعاناة للقهر واثرا من التفكير فيه قادرة على دفع عقول الحشد الى « التفكير » ، أو الى اعادة فحص عادتهم التي كانت تدفعهم الى الاعجاب بالاعيب الشيخ داود اللفظية التي لا معنى لها .. وحينما أعادوا فحص هذه العادة ، كانوا يشرعون في تغيير عقولهم ولذلك أصدروا حكمهم في صالح نديم .

ولعل هذه اللحظة أيضا هي اللحظة التي ولد فيها نديم المفكر ـ عند أبو المعاطي . لانه وقد اكتشف استمتاع الحشد بمعاني الكلمات، اكتشف أيضا نوع المعنى الذي يستمتع به الحشد ويستجيب له . انه ليس من المعاني المستمدة من الجانب المظلم المتخلف من واقعه ، وان كانت تعالج هذا الجانب وتهاجمه ، ولكنها المعاني التي تشير الى مصدر الحياة المتدفقة الجياشة الذي يكمن في داخلها وفي أعماقها والتي لم تكتشف بعد . ولعل هذا الاكتشاف هو الذي جعل من نديم ـ بعد احساسه الطبقي الاول ـ ثوريا ساعيا الى اكتشاف المعاني والافكار التي تعبر عن هذا الجانب المضيء والحياة والواقع والتي تساعد على خلقه وصياغته وتحديده ، مؤمنا بقدرة هذه الافكار على التفاعل مع الواقع القائم وبقدرتها على تغييره اذا آمن بها الناس ، ومؤمنا بأهمية الصراع ضد الافكار القديمة ورفضها .

في تلك اللحظة اكتشف النديم قيمة الكلمة وقدرتها من خلال اكتشافه لاهمية معناها حين استجاب الحشد للمعنى وليس لمجرد النغم.

وفي تلك اللحظة اكتشف النديم قيمة الحشد . لقد اختفى الحشد من عينيه في البداية حين كان مشغولا باصطياد ألفاظه ومعانيه ، فلم يكن يحس بالحشد الا لحظة اثبات الحشد لوجوده بالاستجابة الحسية في صورة التصفيق . ولكن حين امتلك ناحية معانيه وكلماته ، وحين استعاد احساسه بنفسه وثقته من انتصاره وثق من استجابة الحشد ومن نوع هذه الاستجابة وسببها ، واكتشف أيضا أن الحشد باستجابته له هو الذي ساعده على أن يستعيد احساسه بنفسه وعلى أن يمتلك ناحية الكلام والمعاني .

وهكذا تحولت اللعبة ـ لعبة الكلام ـ الى رسالة . وتحول المهرج مسلي الكبراء الى بذرة ثوري حين اختار موقفه الى جانب الناس الذين آمنوا به ونصروه ، ولم ينظروا اليه كمجرد مهرج أو أدباتي ، واختار موقفه في الجانب المضيء والحي من هؤلاء الناس : عقولهم المستجيبة للتغيير والراغبة فيه والمحتاجة اليه ، والمستعدة لان تفكر

وأن تخلق الافكار الجديدة وأن تعيد بها تشكيل حياتها .

ولكن من أين تأتي الافكار الجديدة ؟ ليس يكفي أن يتجدد الواقع لكي تنبت الافكار الجديدة من تلقاء نفسها . لا بد من وجود رجال مفكرين يكتشفون ما هو جديد في الواقع ويصوغون الافكار المعبرة عن هذا الجديد ، ويكتشفون ما يعتور الواقع من نقص ، ويكملون هذا النقص بخيالهم الانساني وأحلامهم المؤمنة بالمستقبل الواثقة من قدرة الناس على صنعه . الى القاهرة المحروسة اذن .. حيث الواقع الجديد أكثر بروزا ، وحيث الرجال المفكرون أكثر ما يكونون نزاهة وشجاعة . وفي القاهرة ، عرف النديم المزيد عن القصور ، ترفها وزيفها وخداعها وقهرها للفقير الذي يجسر على اجتياز عتباتها ، حتى ولو اجتازها ليؤدي عملا أو خدمة لاصحابها . ففي القاهرة عمل النديم عامل تلغراف في قصر أم الخديوي نفسه . وعرف النديم المزيد عن الازقة والمقاهي ، فان رجلا مثله لا يستطيع العيش دون أن يجول بالازقة ودون آن يرتاد المقاهي .. ولكنه عرف بضعة رجال ، كان شيخهم الذي ينظرون اليه بالاكبار رجلا هنديا أو أفغانيا ، ينسب نفسه الى سلالة الرسول العربي ، ويتحدث أكثر مما يتحدث الرجل العادي ، ويدعونه جمال الدين الافغاني .

ومن هذا الرجل ، يسمع النديم كثيرا من الافكار . يسمع عن الحرية والتضحية والمجد والموت ويسمع عن نشأة الامم واضمحلالها ، وعن الحروب والتاريخ والتقدم ، عن الحكم النيابي وعن الطغيان واهمية الصحافة والتعليم ، ويسمع عن نشأة الاديان وتطورها ، وعن فكرة الالوهية ودور الله في التاريخ ، وعن فلاسفة يؤمنون بأن الله موجود ولكنه كف عن التدخل في شؤون العالم ، وعن فلاسفة لا يؤمنون بوجود الله لانهم يرون أن العالم لم يعد بحاجة الى اله ، وعن فلاسفة يرون أن العالم نظم نفسه بنفسه منذ الازل وفقا لقوانين لا تخطيء أبدا وان كانت تدفع العالم الى التطور والى الحركة على الدوام ! ولكن النديم لم يسمع عن مصر التي عاشها !

ولم يكن النديم يملك الا أن يحسن الاصغاء والفهم ، والا أن يلتهم ما يمنحه شيخه الجديد من الكتب التهاما .. ويعرف المزيد من الافكار ويستوعبها .. ولكنه أيضا لا يعثر بين ركام الكتب على مصر التي عاشها ، وان كان الان مهيا لان يفهم ما عاشه بصورة اعمق وان يكتشف أبعادا جديدة فيها . بل انه قد عاد الى الازهر الذي هرب من دراسته فيه ضجرا بها وتبرما منها وهو بعد صبي صغير ، عاد ليدرس من جديد كل ما هرب منه ، الفقه والشريعة والتوحيد والمنطق ، لعله أن يكتشف فيما هرب منه شيئا عن حقيقة مصر التي تحسس جسدها بيديه .

ولكن رجلا مثل نديم لا يتطور ولا ينمو وتتحدد مواقفه من خلال الكتب وحدها . فان رجلا عاش مثل حياته وغاص في أحشاء بلاده نفسها ، لا تزوده الكتب بغير الفهم ووسائل المعرفة ، ومعالجة الواقع بالعقل الراجح المستنير . ان رجلا مثله لا يستطيع أن يستغني بالكتب عن الحياة وان استعان بالكتب على فهم الحياة نفسها . ولما لم يكن قد وجد كتابا يجلو له حقيقة شيخه الجديد ، جمال الدين الافغاني نفسه ، ولا كيفية الاستفادة من كل ما يطلقه هذا الشيخ الذرب اللسان من أقوال كثيرة ، فقد كان النديم بحاجة الى تجربة عاصفة جديدة يخوضها بجسده وأعصابه وروحه لكي تكتسب كل المعلومات والمفاهيم الجديدة شكلها العملي النهائي في داخل عقله الملتهب الذي يرفض كل التجريدات ويأبى الا أن يمنح لكل ما هو مجرد كيانا محسوسا . كان لا بد أن يعود بكل أفكاره الجديدة ومعلوماته ومدركاته التي تلقاها من لسان الشيخ الكثير الكلام ومن بطون الكتب وأروقة الازهر ، كان لا بد أن يعود بكل ذلك الى مصر نفسها مرة اخرى ليكتشف الخبيث من الطيب ، وليعرف الغث من السمين ، وليحصل على الحقيقة وعلى اليقين وعلى الواجب .

وفي الصعيد ، حيث نقل النديم كعامل للتلغراف ، خاض تجربته الجديدة . لقد انخفض النيل ، كشفت المجاعة عن الحقيقة : الجوع المستتر ، أو الشبع الزائف الذي يعيشه الناس في مصر وتعيشه مصر على الدوام . ولا يستطيع أحد أن يصور العاصفة التي اجتاحت روح النديم وعقله مثلما فعل أبو المعاطي أبو النجا : « ولكن ما تكاد بالارض المشققة السوداء ، كانما يبحثون في شقوقها عن بداية الحياة والعلاقات ، ويصبح الجميع مجرد أعداد ، مجرد أفراد ، تنحصر علاقتهم بالارض المشققة السوداء ، كانما يبحثون في شقوقها عن بداية الحياة أو نهايتها كل وحده ، يبحث وحده . ويعيش وحده . ويموت وحده . عالم تسقط فيه كل اللغات ، حين تسقط كل العلاقات ، وتستحيل كل الرغبات البشرية اللانهائية الى رغبة واحدة لا مثيل لضراوتها . رغبة في البقاء ، وكانما الحياة تزداد جمالا كلما ازدادت بشاعة وقسوة واستحالة . وفي هذا العالم الذي وقف نديم على حدوده متفرجا ذاهلا مروعا ، كان كل شيء يفقد معناه من جديد .. حتى أحاديث الشيخ جمال الدين الافغاني وهو جالس في مقهى الازبكية يشرب الشاي ويدخن ويثير مشاعر من حوله ضد الظلم ويتقاضى راتبه من الخديوي ، بدت له ضربا من السخف والبلاهة . ما جدوى أن تعيش الافكار وتنتقل من جيل الى جيل ، بل ما جدوى الافكار ذاتها ، ما دامت الحياة الانسانية قريبة هذا القرب المروع من الحياة الحيوانية » ؟.

ما قيمة الجلوس على المقهى ومناقشة الظلم والحرية والاستعباد وكفاح الامم من أجل التقدم ، وما قيمة قراءة الاف الكتب وكتابة عشرات غيرها واطلاق الحكم المأثورة والاقوال الرصينة وأبيات الشعر .. ما قيمة كل هذا اذا قيل بعيدا عن الناس الجوعى الذين لا يجدون ما يأكلونه ؟ قد يجد الشيخ الافغاني وتلاميذه على المقهى ما يلهيهم ويملأ لياليهم الطويلة بمناقشاتهم تلك العظيمة التي تحلق فوق أحلام البشر من بني جلدتهم وجلدة النديم ، ولكنها لا تشبع تلك الاحلام أبدا .. لان أحلام هؤلاء يطوف بها الخبز كشيء عزيز ، وتلوح فيها الحرية كأسطورة ، ولا تتراءى فيها الكرامة الا كوهم كذوب .

***

الى الاسكندرية اذن ، مدينته الاولى مرة ثانية بعد جولته الواسعة تلك التي جرب فيها كل شيء . الى الاسكندرية اذن لكي يجرب هناك كل ما عرفه واستخلصه وعاناه . لقد استطاع أن يفلت من سيطرة العقلية الازهرية ، وأن يفلت من مصير الادباتي المهرج ، وأن يفلت من هيمنة احلامه البورجوادزية الشخصية ، بمجرد ان يحيا حياة هانئة لا مسؤولية فيها ، واستطاع ان يفلت اخيرا من أن يقع فريسة التهويم العقلي الذي لا جدوى منه بالكلمات الكبيرة على المقاهي ، وعاد الى مسقط رأسه بحصيلته الهائلة من الافكار والمعارف والخبرات التي جناها من حياة الادباتي المهرج ، والبورجوازي المجتهد ، والمثقف الثرثار ، والازهري الكادح ، والموظف وقاريء الكتب .. أفكاره ومعارفه وخبراته كلها تدور حول مصر التي استقى منها ذلك جميعا .. مصر الجاهلة الجائعة المسترقة المتخلفة ، مصر التي فقدت روحها وتجمدت روحها مثل أعمدة الرخام الباردة في ردهات الازهر القديم ، والتي فقدت هذه الروح في سوق النخاسة الرأسمالية المفتوحة الاشداق من أجل التهام كل ما تخبئه أعمدة الرخام من كنوز مطمورة . عاد وهو يعرف ان بلادا اخرى قد قفزت فوق مثل هذه الهوة المظلمة من الجهل والفقر والتخلف او أكثر منها اتساعا وظلاما بالحرية والعلم والتنظيم الاجتماعي والاقتصادي . ولكنه ، لم يكن قد اكتشف الشيء الوحيد الذي سيفرق نظرته وسيمنعه من ان ينظر النظرة الصحيحة ويخطو الخطوة اللازمة بالتحديد في الطريق الوحيد الذي يمكن أن يؤدي الى أهدافه كلها .. لم يكتشف أن تلك البلاد قد قفزت فوق مثل تلك الهوة على جسر صنعته من الصراع الطبقي الحاد ومن أشلاء الامم المغلوبة والمقهورة مثل أمته ، وان على بلاده لكي تقفز الهوة ان تتحول الى ذئب مسلح بالمصانع والمدرعات البحرية والبنوك .. او الى ملاك مسلح بكل ذلك أيضا ، ولن يكون هذا أو ذاك الا بصراع طبقي ناجح

تخوضه الطبقات الفقيرة وهي مفتوحة العينين .

ورغم أن عصره والثقافة الممكنة في « مصره » لم تكن تسمح له بأن يحصل على تلك النظرة ، الا أنه كان يحمل أملا كبيرا ورؤية هي أقرب الرؤى في عصره الى الصواب وأبعدها نفاذا .. ان مصر كلها بحاجة الى تغيير شامل لكل تفاصيل حياتها ، بحاجة لا الى الثرثرة على المقاهي وكتابة المقالات لشعب سبعة وتسعون بالمائة من أفراده أميون ، وانما هي بحاجة الى الغوص في جسدها الحي نفسه لاستئصال العفن واكتشاف الروح وبعثه الى الحياة من جديد .. وقد غاص هو في جسدها واكتشف العفن ورأى الروح تختلج بعينيه ، وفي القطار .. « خيل اليه أن الفارق بينه وبين أستاذه (جمال الدين الافغاني) هو نفس الفارق بين من يعيشون في القمة وبين من يعيشون في السفح ، واذا كان الشيخ جمال الدين لالف سبب سيبقى في هذا المكان المرتفع بحيث لا يرى ولا يتعامل الا مع الصورة العامة للناس والمشكلات ، فانه هو نديم ، لالف سبب آخر سيغوص بقدميه في الاوحال ، في التفاصيل والاحداث والوقائع ، حيث يمكن أن يفترسه الالم اذا لم يجد لرأسه مكانا يستطيع منه بين وقت وآخر أن يبصر الصورة العامة للناس والمشكلات .. لقد عرف بعد كل هذا التجوال مكانه ، وليس يريد أكثر من أن يحتفظ لقدميه بمكان في السفح ، ولرأسه بمكان في القمة ، حتى لا يقتله اليأس أو تضلله الاحلام .. » .

الى هنا ولا يجد النديم ، ثم لا يجد المؤلف معه مفرا من أن يذوب النديم ، ويذوب مكتشفه الفني ومصوره الجديد معه ، في بوتقة التاريخ الهائلة . ولم تكن تلك فترة عادية من التاريخ . كانت مصر على وشك السقوط بين فكي ذلك الشدق المتوحش ، شدق التوسع الاستعماري الغربي نهائيا . وكانت على وشك أن تودع عالمها الوسطي الراكد الى الابد لكي تجذبها تيارات الحضارة الغربية الرأسمالية التي كانت تستكمل في تلك المرحلة من نهاية القرن التاسع عشر مهمة تحويل العالم الى وحدة اقتصادية واحدة ، تخضع لنفس العلاقات وتحكمها نفس التيارات الحضارية العامة ، وتتنازعها مجموعة من القوى المتصارعة في الغرب الاوروبي .

كانت هناك في مصر طبقات تولد وطبقات تموت . وثقافة برمتها تدخل دور الاحتضار ، وثقافة أخرى غازية تتهيأ لاحتلال مكان القيادة من خلال ربائبها من أبناء البعثات الاوروبية . والمدارس الحديثة ، دون أن تجد هذه الثقافة لنفسها منفذا الى القاعدة العريضة من الريفيين والفئات الامية الاخرى في المدن . وكانت طبقة النديم ، بورجوازية المدن الصغيرة ، التي كانت الضحية الاولى ــ مع الفلاحين وصغار الملاك ــ للعلاقات الرأسمالية الغازية تواجه امتحانا صعبا : أتتمسك بالعالم القديم وهو المستحيل والقهر معه ، ام « تخضع » للجديد وهو الفقر والافلاس والموت ؟ ولم يكن أمامها سوى أن تجرب كل شيء ــ طالما لم تهتد الى مفتاح الاجابة على ذلك السؤال المزدوج القاطع كشفرتي المقص . لم يكن امامها الا ان تجرب القديم كله والجديد كله ولا تذوق من أيهما الا المرارة والحسرة ومزيدا من الازمات المستحكمة . انها لم تعد مؤمنة بشيء من القديم أو على الاقل لم يعد شيء منه يسعفها . وهي عاجزة عن تمثل الجديد وصنعه لحسابها دفعة واحدة ، فلا بد لها اذن من أن تجرب ، وكان النديم ــ في التاريخ وفي الخلق الفني معا ــ هو النموذج المثالي لكل تجاربها الممزقة : الخلافة الطاغية المتخلفة ذات الحق الالهي والفرمانات وذيلها الخديوي ، أم الاستقلال والحكم النيابي المستنير والامة مصدر السلطات ؟ الزراعة المستهلكة الفقيرة ، أم التجارة الخاضعة لقيم انتاجية واستغلالية ساحقة ، أم الصناعة التي تتطلب خبرات ورؤوس أموال غير موجودة ؟ الفقه والتوحيد والشريعة والمنطق ، أم حساب الدوبيا ومسك الدفاتر والقانون التجاري والمدني ، أم الطبيعيات والكيمياء والميكانيكا وصنع المراجل والقاطرات البخارية والالات المجمعة والمدافع ذاتية الارتداد والبنادق السريعة الطلقات ؟

واذا كان من الممكن لفرد واحد ــ مثل النديم ــ أن يجرب وأن تخيب تجاربه فيخرج من تجربته ومن خيبته جميعا بالخبرة والحنكة والصبر الحكيم وبطلا تتجمع فيه مآثر أمته وجهود عصره مثلما أصبح النديم ، فان الامة كلها لم تكن تملك الوقت لكي تجرب ــ رغم أنها جربت وخاب أملها . حقا لقد خرجت مصر بالخبرة والحنكة .. ولكن خيبة الامة هي الهزيمة ، والامل في اختزال عشرات السنين من التطور قد يتحول الى الامل في ألا ينقلب التيار ويرتد الزمن الى الوراء .

كانت العقلية التجريبية البورجوازية هي العقلية السائدة في العالم المتحضر كله ــ رغم ظهور النزعة العلمية منذ ما يقرب من أربعين عاما . ولم تملك مصر أن تفلت من اسار النزعة السائدة ، رغم انها لم تعرفها معرفة فلسفية أو نظرية على وجه اليقين حتى ذلك الوقت ، ولكنها أيضا كانت معرفة فادحة الثمن ، وان لم يكن ثمة سبيل واضح غيرها في ذلك العصر المتخبط الهائج . ولذلك حاول النديم أن يمسك بالخيط من أوله ، من التعليم الذي ظنه الوسيلة « المنطقية » للحصول على وسائل اجتثاث العفن وبعث الروح في مصر . وفي الوقت الذي كان النديم يكتشف فيه أن التعليم هو وسيلة وصول الفكر الجديد الى الطبقات الجديدة ، كان عرابي يفتتح مدارس لمحو الامية في معسكرات الحامية المصرية في الحجاز . وحينما كان النديم يبشر بتكوين الجمعيات الاقتصادية أو الشركات بتعبيرنا الاكثر حداثة كوسيلة لتجميع البورجوازية المصرية لتدخل في صراع السيطرة على السوق المصرية ، كان الانجليز والفرنسيون يفرضون دخول وزيرين في الوزارة المصرية للمالية والاشغال وأولى الشركات العقارية الانجليزية تستولي على ضواحي الاسكندرية الزراعية ، وشركة أخرى تستولي على منطقة كوم أمبو لتسيطر على واحد من أهم المحصولات الزراعية ــ زراعة قصب السكر ــ كلها . وحينما كان النديم ــ الذي جند نفسه نهائيا للعمل الثوري السياسي بعد انفجار الثورة ــ حينما كان يحدث الاعيان عن الدستور ، كانوا هم يحدثونه عن دين المقابلة (1) وضرورة ارجاعه .

وفي سنوات الثورة نفسها ١٨٧٩ ــ ١٨٨٢ ــ كان نديم يحاول أن يركز جهوده كلها على التعليم . ولكن الدوامة القوية لا تسمح له بهذا التركيز ، حينما يكتشف أن كل شيء يتهدده الانهيار وكل شيء أصبح موضعا للمناقشة وليس ثمة شيء في العالم القديم يتمتع بذلك الاستقرار الآسن الذي عاشه طوال ألف سنة : الخلافة والسلطة وحق الولاية والقانون والملكية والملة والشرع ، والزواج والمرأة والرق واستدارة العالم والنبوة والدين . والاف القضايا تبرز لاول مرة وتستحدث لنفسها قاموسا خاصا بها يعرف طريقه الى ألسنة الناس : التدخل الاجنبي والوطنية ووحدة الامة والتعليم والتقدم وصراع الامم وسقوط الامبراطوريات وتكونها والصحافة والمسرح .. ولا يجد نديم بدا من أن ينغمس في هذا كله .. انه يحمل مصر كلها في قلبه ، فعليه أن يشغل عقله وحده بكل ما يشغل العقول في مصر كلها . وهكذا يتحول نديم الذي كان أدباتيا ثم معلما ثم مؤلف روايات .. الى صحفي . ولا يكتفي بأن يكون كاتب مقالة كل أسبوع ، لا بد له من مجلة خاصة يكتبها كلها حتى يجد الفرصة لكي يناقش كل هذا .. لكي يناقش كل شيء ! انه يستمد الان أفكاره وكلماته من خمسة وثلاثين عاما من التشرد والصعلكة والمسامرة واكتشاف الناس والافكار والمناقشة وقراءة الكتب القديمة والجديدة .. هكذا يكتسب النديم في عمل أبو المعاطي قامة الشاعر الملحمي والبطل الملحمي في وقت واحد . الشاعر الذي يسجل القيم ويحفظ المآثر ويثيرها ويكتشفها بفكره ويستكملها

---

١ ــ دين المقابلة افترضه الخديوي اسماعيل من ملاك الارض المصريين بان ألزمهم بدفع الضرائب المستحقة على الارض لست سنوات كاملة مقدما ، مقابل اعفائهم من نصف هذه الضرائب بعد السنوات الست ولكن عاد فالغاه قبيل عزله وطالب بالضرائب كاملة .

بخياله ، والبطل تتجسد فيه كل هذه الصفات والذي يأتي كل هذه الافعال من خلال ارتباطه الوثيق بجماعته واقفا على رأسها . واذا كان الشاعر الملحمي والبطل الملحمي يكتفيان بتسجيل ما هو قائم أو تجسيده ، فان البطل والشاعر الجديدين يختاران مما هو قائم ما يناسب التاريخ في المستقبل ، ما يناسب الحركة الدائبة للزمن والجماعة في داخله ، وليس ما يجمد هذه الحركة أو يكتفي بالمحافظة على اطاراتها الجامدة ، ثم يتجاوزان الاختيار مما هو قائم الى التبشير بما ينبغي أن يقوم والى المشاركة في اقامته . وهذا هو المعنى الجديد الذي أضافه الفنان على التاريخ المصمت ، وهذه هي الروح التي نفخها الفنان في مجموعات الازجال والخطب والمقالات حتى تصبح من جديد انسانا حيا اسمه عبد الله النديم . وقد حمل هذا الانسان عقلا جديرا بقامته الملحمية وبتطلعاته الجديدة على البطل الملحمي . انه يريد أن يستكمل نقص الواقع وأن يدفعه الى الامام أيضا . والواقع ممزق بين القديم والآسن والجديد المتوحش . القديم متحجر ومتخلف بصورة مفزعة ، والجديد مرن ومتطور بصورة تبعده عن الواقع الى درجة لا تصدق ، وهو ايضا قاس وصارم الى درجة مخيفة . ولا بد من وجود جسر يربط بينهما ، ولا بد أولا من التقريب بين الشقتين المتباعدتين حتى تكون اقامة الجسر أمرا ممكنا . ولكن يبدو أن تقريب الجديد أسهل ألف مرة من تقريب القديم الذي ليس هناك ما يكفي من الوقت لاكتشاف وسيلة لتقريبه ، وليس هناك ما يكفي من المعرفة والخبرة لاجبار القديم على التحرك واستخلاص ما هو أصيل فيه وقادر على البكاء للاستفادة به في عملية بعث الروح المنشودة . واذا كانت الافكار المجردة صعبة القيادة الى هذا الحد ، فالواقع المادي ، الناس بطبقاتهم ومصالحهم وقيمهم وعلاقاتهم وانتماءاتهم ، أصعب قيادا الى درجة يكاد يستحيل التغلب عليها . والنديم لا يجد فكاكا من أن يغرق نفسه في هذا كله فلا يخلص لنفسه الا حين يموت أحد أولاده أو يستشعر مرارة اليأس ، أو يغرق في الحب .

فالتاريخ لا يفارق الخلق الفني عند أبو المعاطي الا حين يجد المؤلف أن لا بد من استكمال حلقة مفقودة أهملها التاريخ ، وربما لم يعشها الشخص الحقيقي نفسه ، ربما لانه لم يستطع أن يعيشها ، أو حينما يجد المؤلف الخالق أن التاريخ ، حتى ولو كان كاملا في هذه النقطة أو تلك ، فانه سيكون شيئا سخيفا وجافا وغير انساني لو بقي على كماله الممسوح القسمات . وهكذا تبرز قصة الحب الغريبة ، لكي تمنح التاريخ صفة الانسانية ، ولكي تمنح الخلق الفني صفة الحضور الشخصي ونكهته لبطل التاريخ والعمل الفني جميعا . ولكن البطل الحقيقي كان عاشقا لمصر وغارقا في بحرها ، ولهذا فان المؤلف يخلق الحبيبة فقيرة كمصر ، متعبة مثلها ، أرملة مثلها فقدت رخاءها القديم وفي انتظار - وبحاجة ، الى من يعيد رخاءها ، تحيط بها المشكلات وتضيع ملامحها مثلما تضيع ملامح مصر وراء الاستار القديمة ولا تسعف الاضواء الجديدة في توضيح الملامح الضائعة أو رسمها من جديد . والبطل العاشق في الحب كما في الكفاح لا يكاد يصل الى الحبيبة حتى تضيع فيه ، ولا يكاد يسمع عنها حتى يضل الطريق اليها ، ولا يراوده الامل القوي في العثور عليها حتى يعرف أنها وقعت فريسة الاجانب . خطوة بخطوة مثلما كان كفاحه من أجل أن يعيد مصر الحقيقية الى الحياة ، أن يستعيدها لنفسه وهو بطل عصرها وأن ينفخ فيها روح الحياة . فالنديم يعرف أن حبيبته الضائعة قد أصبحت خادمة عند أسرة أوروبية وتحولت الى مسخ معوج اللسان غريب الملابس والمشية والسلوك .. وبعدها بأيام ، تبدأ المرحلة الاخيرة للثورة ، الرحلة التي تنتهي بالهزيمة والاحتلال .

* * *

.. « فحين يلوح للمرء أن كل شيء قد انتهى ، تكون ثمة دائما بداية . وحين يلوح أن كل ما نعيش من أجله قد تبدد ، فاننا نكتشف القيمة العظيمة للحياة .. لمجرد الحياة ، وحين قرر الاخرون أن يسلموا أنفسهم ، لم يتخذ نديم نفس القرار .. » !.

ذلك أن هزيمة جيش لا تعني فناء أمة ، واحتلال الارض لا يعني أن يكف الناس عن التوالد والتعلم والتطور والنمو . وخسارة معركة لا تعني خسارة الحرب . فليواصل نديم حربه اذن ، فقد كانت حربه هو منذ البداية ، قطعها عليه عرابي الذي استطاع بالقوة العسكرية والزعامة والشخصية الطاغية والاحترام الاجتماعي واجماع الكبراء عليه ، استطاع بكل هذا ان يكون هو القائد والزعيم لجيش النديم ، أو جيش مصر التي ذاب النديم في دمها وعروقها . ليواصل النديم حربه لان مشكلة القديم والجديد ما زالت قائمة ، ولم تزل الجوانب الاصيلة والقادرة على البقاء من ذلك القديم مجهولة وغامضة ، ولم يزل الجديد كله مستوحشا وقاسيا ولم يطوع بعد للارض الجديدة عليه ، القديمة قدم التاريخ نفسه . ورغم أن السيطرة المباشرة - الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية للقديم قد انهارت تماما أو تكاد ، الا أن جذوره ما زالت ضاربة في الارض وفي الاعماق ... فليذهب اليها النديم بنفسه وان أخفى حقيقته وراء عشرات الاسماء والازياء ، فهناك معركته وهناك مأواه جميعا . فاذا كان قد فقد القدرة على خوض المعارك السياسية المكشوفة أمام الجماهير باسمه وبانتمائه الحقيقيين ، فما زالت الافكار المجردة - القديمة والجديدة عصية القياد ، والواقع المادي أعصى قيادا ، وما زال في رأس الداعية المفكر الممثل الشاعر الكاتب الصحفي الخطيب مؤلف الروايات كثير من الاسئلة وأجوبة كثيرة ، وما زالت شهوته الى الكلام قائمة ! وهذا النوع من البطل الملحمي لا يخمد أبدا ، أنه اما أن يموت أو ينتصر أو يستمر في القتال حتى وان غير أسلحته وسحنته .

فرغم الهروب في الريف تسع سنوات كاملة ، ورغم سنوات أخرى من المنفى ، فان النديم لا يكف عن استخدام أسلحته ولا يهجر ميدان القتال باسلحته : التفكير والكتابة . فاذا كان عقل مصر وروحها يشغلان عقله وروحه ، فلا يمكن لعقله أن يكف عن طرح الاسئلة واقتراح الاجوبة ، ولا يمكن لروحه أن تكف عن البحث المض . والهزيمة تؤكد أن الاكثر قوة هو من كان قادرا على الانتصار . والقوة بالمدافع والمعدات والصناعة حقا ، ولكنها أيضا بالتنظيم والتماسك والذكاء والحيلة .. والايمان والاحساس بالولاء .. وكل ذلك - كما يظن النديم التجريبي المثالي الثوري المجتهد ، أنما يكتسب بالتربية الحديثة الموحدة التي تخلق أمة حديثة موحدة في فصول المدارس ، والامة الموحدة نتاج التقدم ، فما التقدم اذن الا نتاج لكل ذلك . والامة لا بد لها من رأس تدين له بالولاء ، ولكن الولاء أصله لله . فلا ولاء لوال لا يتبع ما امر به الله ، ولو تسمى باسم الخليفة وحتى لو سانده كل مشايخ العالم أو لهجت بحمده كل أعمدة الرخام . ورغم هذا فالمنفى يتربص به من جديد ، فليذهب الى الاستانة نفسها اذن ، مقر الخليفة السلطان العتيق الذي تتجسد فيه كل عقبات القديم وجموده وجهله وتخلفه وشراسته ، وليرو النديم غليله بمعركة اخيرة يشنها على احد أتباع هذا الرمز العتيق .

* * *

والتاريخ يقول لنا ان النديم مات في منفاه بالاستانة ودفن هناك . ولكن الفن لا يكتفي بهذه الحقيقة . فالحقيقة المجردة ليست سلبية وليست بلا معنى في الفن . ان النديم يموت لانه فقد مصر ، ولكنه يموت وهو يفكر فيها لانه لم يفقد أمله هناك . ولا يعود النديم الى مصر أبدا .. لانه لا يعود اليها جثة هامدة . فالجثة تبقى في المنفى ، أما هو فيعود !

القاهرة

سامي خشبة